الباب السابع

المستشرقون ومنهج نقد المحدثين

لقد مرت بنا الأقاويل حول منهج المحدثين في نقد الأحاديث ، وأن جل اهتمامهم كان منصباً على الأسانيد دون المتون .

لذلك رفض المستشرقون ، ومن يمشي في ركابهم ، نتيجة بحوث المحدثين بسبب ضعف المنهج في نظرهم ، واختاروا لأنفسهم منهجاً ، وهو نقد المتون . وفي هذا المجال نستعرض كتابات ثلاثة من كبار المستشرقين في هذا القرن وكانوا على رأس الاستشراق إلى أمس القريب . وهم :

١) غولتسهير . ٢) وفنسنك . ٣) وجوزيف شاخت .

ونبدأ بما كتبه غولتسهير لأنه أقدمهم موتاً ، ولأن كتابه يعتبر « كتاباً مقدساً » عند المستشرقين ــ ولم يقم أحد من المستشرقين بدراسة الحديث النبوي مثله ، إلا جوزيف شاخت في العصر الحاضر .

غولتسهير ونقده لحديث لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد :

قال غولتسهير : إن عبد الملك بن مروان كان خائفاً من عبد الله بن الزبير من أن يأخذ البيعة من الشاميين الذين يحجون إلى بيت الله الحرام ، لذلك التجأ إلى حيلة ، واحتمى إلى القاعدة ، وهي الحج إلى قبة الصخرة بالقدس بدلا عن الحج إلى مكة ــ ولذلك أصدر قراراً بأن الطواف حول الصخرة بالقدس يقوم في شرعيته مقام طواف الكعبة في الإسلام . ولقد أسند إلى التقي المحدث الزهري ليبرر هذا الهدف

السياسي للإصلاح الديني باختراع حديث موصول إلى النبي صلى الله عليه وسلم ونشره بين الناس يفهم منه بأن هناك ثلاثة مساجد يمكن أن يحج الناس إليها : مكة والمدينة والقدس[1] .

ولاتهام عبد الملك بإلغاء الحج أو على الأقل بمحاولة الإلغاء ، يعتمد غولتسهير على ما أورده اليعقوبي في تاريخه حيث يقول :

ومنع عبد الملك أهل الشام من الحج « وذلك أن ابن الزبير كان يأخذهم إذا حجوا بالبيعة ، فلما رأى عبد الملك ذلك منعهم من الخروج إلى مكة ، فضج الناس ، وقالوا تمنعنا من حج بيت الله الحرام وهو فرض من الله علينا . فقال لهم : هذا ابن شهاب الزهري يحدثكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : لا تشدوا الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، المسجد الحرام ومسجدي ومسجد بيت المقدس وهو يقوم لكم مقام المسجد الحرام . وهذه الصخرة التي يروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع قدمه عليها لما صعد إلى السماء تقوم لكم مقام الكعبة ، فبنى على الصخرة قبة ، وعلق عليها ستور الديباج ، وأقام لها سدنة ، وأخذ الناس بأن يطوفوا حولها كما تطوف حول الكعبة ، وأقام بذلك أيام بني أمية »[2] .

لكن يا ترى هل كان الزهري في منزلة تسمح له باختلاق حديث ونسبته إلى النبي صلى الله عليه وسلم ؟ وهل كان في وسعه أو في وسع عبد الملك بن مروان إلغاء الحج وإيجاد بديل عنه ؟ الحقائق التاريخية لا تؤيد هذا الادعاء بل تعارضه معارضة شديدة .

لقد اختلف المؤرخون في تاريخ ولادة الزهري ، وتضاربت أقوالهم من السنة الخمسين للهجرة إلى الثامنة والخمسين[3] ولم يلتق الزهري بعبد الملك قبل سنة ٨١ هـ[4] .

---

(١) Goldziher, *Muhd. Studien*, ii, 35; see also Guillaume, *The traditions of Islam*, 48.

(٢) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣١١ .

(٣) تاريخ الإسلام للذهبي ٥ : ١٣٦ ، ابن قتيبة المعارف ٤٧٢ .

(٤) البخاري التاريخ الصغير ص ٩٣ اقرأ مع الطبري ٢ : ١٠٥٢ .

ومن ناحية أخرى كانت فلسطين سنة ٦٧ هـ خارجة عن سيطرة عبد الملك بن مروان[٥] وكان الأمويون في عام ٦٨ هـ بمكة في موسم الحج[٦] .

وفي ضوء هذه الحقائق نستطيع أن نقول إن عبد الملك بن مروان لا بد أنه فكر في بناء قبة الصخرة كبديل عن الكعبة بعد سنة ٦٨ هـ .

وتشير المراجع التاريخية فعلاً إلى أنه بدأ بالبناء من عام ٦٩ هـ[٧] ولعل هذا هو الوقت المناسب لاستشهاده بحديث الزهري . وكان الزهري في ذلك الوقت ما بين عشرة وثمانية عشرة من عمره وليس من المعقول أن يصبح طفل أو شاب في هذا العمر مشهوراً في الأوساط العلمية في بيئة غير بيئته وموطن غير موطنه حيث تخضع له القلوب ليتمكن من إلغاء فريضة الحج المبين في القرآن الكريم والأحاديث النبوية مئات المرات . ولقد كان هناك عدد من الصحابة وكبار التابعين في الشام ، ما كان يمكنهم أن يسكتوا على هذا التزوير . وإن قلنا إنه لم يكن لديهم إيمان كاف أو شجاعة كافية ليقوموا في وجه الباطل ، بل كانوا من أبناء الدنيا إذن لغضبوا على عبد الملك لاهماله إياهم وإبعادهم عن منزلتهم بحيث استشهد بابن عشرة ، ولم يستفد من « خدماتهم » .

ثم اليعقوبي نفسه يذكر أن الحج أصبح في يد الأمويين من عام ٧٢ هـ وما بعده ، وذهب عبد الملك بنفسه للحج في عام ٧٥ هـ[٨] .

وعمارة الصخرة لم تكمل إلا في عام ٧٢ هـ ، وفي هذه السنة وما بعدها كانت مكة ــ حسبما ذكره اليعقوبي ــ في يد الأمويين ، لذلك لم يكونوا في حاجة إلى إيجاد بديل للحج ، ولا داعي للطواف حول الصخرة ، ولم يكن الأمويون مغفلين ليمنحوا أعداءهم سلاحاً ضدهم بحيث يقوموا بالدعاية ضدهم إذ أنهم غيروا حج بيت الله الحرام إلى زيارة الصخرة بالقدس .

---

(٥) اليعقوبي ٢ : ٣٢١ .

(٦) اليعقوبي ٢ : ٣٢٠ .

(٧) المقدسي ، مثير الغرام ، ٣٠٠ نقلا عن سبط ابن الجوزي . See, *J.R.A.S.* xix, 1887, p. 300 .

(٨) تاريخ اليعقوبي ٢ : ٣٣٦ .

وبعد هذا وذاك كله فإن الكلمات المنقولة عن الزهري لا تشير من قريب ولا من بعيد إلى إيجاد بديل للحج ، كما أنها لا توحي بتقديس الصخرة ، ولا بتحبيذ الطواف حولها . كل ما هنالك أنها تعطي منزلة خاصة للمسجد الأقصى .

ومن البدهي أن المسجد الأقصى قبلة المسلمين الأولى ، ومسرى الرسول الأعظم كما ذكر القرآن نفسه ، اللهم إلا إذا أخذنا « بالاكتشاف الجديد » الذي يذهب فضل اكتشافه إلى البروفسور غيوم بأن المسجد الأقصى كان بالجعرانة[٩] والمسلمون بعقلهم الخرافي حولوه إلى القدس[١٠] ولا يبدو أن عقول الناس حتى الآن بلغت إلى مستوى يقبل هذا « الاكتشاف » .

أضف إلى ذلك ، أن الزهري ليس الراوي الوحيد لهذا الحديث بل هناك رواة عديدون وأذكر هنا بعضهم فقط .

الحديث ـ لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد ، ورواته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

١ ـ عبد الملك بن عمير عن قزعة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[١١] .

٢ ـ قاسم عن قزعة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[١٢] .

٣ ـ قتادة عن قزعة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[١٣] .

٤ ـ إبراهيم بن سهل عن قزعة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[١٤] .

٥ ـ قصيم عن قزعة عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[١٥] .

٦ ـ مجالد عن أبي الوداك عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[١٦] .

---

(٩) موضع على بعد أربعين كيلومتراً من مكة ، انظر معجم البلدان لياقوت الحموي .

(١٠) Guillaume, A. *Where was al-Masyid al-Aqsa?* al-Andaluse, Madrid, 1953 pp. 323–336.

(١١) حم ٣:٧ ، ٥١ ، م الحج ٤١٥ ، خ الصوم ٦٧ .

(١٢) حم ٣:٣٤ .

(١٣) حم ٣:٤٥ .

(١٤) حم ٣:٧٧ .

(١٥) الطبراني ، الأوسط ١:٢٦١ ـ أ ، تاريخ الفسوي ٣:٨٩ ـ أ .

(١٦) حم ٣:٥٣ .

٧ ــ عبد الحميد عن شهر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[١٧]

٨ ــ ليث عن شهر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[١٨] .

٩ ــ عبد الملك بن عمير عن عكرمة مولى زياد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[١٩] .

١٠ ــ أبان بن ثعلبة عن عطية عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه[٢٠] .

١١ ــ عبد الملك عن عمر بن عبد الرحمن عن أبي بصرة الغفاري[٢١] .

١٢ ــ يزيد بن أبي حبيب عن مرثد بن عبيد الله عن أبي بصرة الغفاري[٢٢] .

١٣ ــ هشام عن نافع عن ابن عمر[٢٣] .

١٤ ــ سلمة بن كهيل عن حجية بن عدي عن علي[٢٤] .

١٥ ــ يزيد بن أبي مريم عن قزعة عن عبد الله بن عمرو[٢٥] .

١٦ ــ محمد بن ابراهيم عن أبي سلمة عن أبي هريرة[٢٦] .

١٧ ــ محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة[٢٧] .

١٨ ــ عمران بن أبي أنس عن سلمان الأغر عن أبي هريرة[٢٨] .

١٩ ــ الزهري عن سعيد عن أبي هريرة[٢٩] .

إذن بأي منطق نستطيع أن ننسب فضل « وضع » هذا الحديث للزهري وحده ونتجاهل هؤلاء وكثيرين غيرهم ، إذ من الواجب إشراك غيره معه .

---

(١٧) حم ٣:٦٤ .

(١٨) حم ٣:٩٤ .

(١٩) حم ٣:٧١ .

(٢٠) الطبراني ، الأوسط ٢:٣ ــ أ .

(٢١) حم ٦:٧ .

(٢٢) حم ٣:٣٩٧ .

(٢٣) الطبراني ، الأوسط ٢:١٠٥ ــ أ .

(٢٤) الطبراني ، الأوسط ١:٢١٠ ــ أ ، المعجم الصغير ٩٧ ــ ٩٨ .

(٢٥) جه إقامة ١٩٦ ، تاريخ الفسوي ٣:٨٩ ــ أ ب .

(٢٦) حم ٦:٧ ، تاريخ الفسوي ٣:٨٩ ــ أ .

(٢٧) حم ٢:٥٠١ ، دي الصلاة ١٣٢ .

(٢٨) م الحج ٥١٣ .

(٢٩) خ فضل الصلاة ١ ، م الحج ٥١١ ، ن مساجد ١٠ ، حم ٢:٢٣٤ ، ٢٣٨ ، ٢٧٨ .

نكتفي بمثال واحد من انتقادات غولتسهير وننظر إلى حصيلة مستشرق آخر وهو فنسنك

والأستاذ فنسنك ذائع الصيت في الأوساط العلمية لما قام به من جهد جبار في تأليف المعجم المفهرس لألفاظ الحديث .

فنسنك ونقده للحديث بناء على المتن :

يقول فنسنك : لقد تطورت النظريات وكذلك العمل بعد وفاة محمد صلى الله عليه وسلم بعدة قرون . وهذا التطور منح للقادة الروحيين فرصة لبيان روح الإسلام في الأحاديث ومن أهمها على الاطلاق حديث (العقيدة والشهادة) وبنى الإسلام على خمس[٣٠] .

والدليل على وضع هذين الحديثين ــ في نظر فنسنك ــ بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بعدة عقود على يد الصحابة هو كالآتي :

لم يكن لدى النبي صلى الله عليه وسلم أية صيغة يجب إتيانها لمن يدخل في كنف الإسلام . وعندما التقى المسلمون بالمسيحيين في الشام ووجدوا عند النصارى كلمة شعروا بحاجة إلى شيء يماثلها ، فاستخرجوا روح الإسلام في شكل هذين الحديثين . وبما أن هذا الحديث يشتمل على الشهادتين ، لذلك لا يمكنه أن يقبل أن هذا الحديث صادر عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ويعرف فنسنك جيداً أن التشهد جزء من التشهد الذي يقرأ في نهاية كل ركعتين في الصلاة ، وكان من المفروض أن يعدل نظريته ، لكنه عدل الصلاة نفسها ، فادعى أن الصلاة نفسها وصلت إلى شكلها النهائي بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم[٣١] ، ومن الغريب جداً أن القرآن يأمر بالصلاة عشرات المرات[٣٢] والأحاديث الخاصة بالصلاة تصل إلى الآلاف ، بالرغم من هذا يزعم فنسنك أن النبي صلى الله عليه

---

(٣٠) Wensink, A. J. *The Muslim Creed*, p. 19, see also p. 32.

(٣١) Wensink, A. J. *The Muslim Creed*, p. 32.

(٣٢) انظر المعجم المفهرس لألفاظ القرآن ٤١٣ ــ ٤١٤ .

وسلم لم يعلّم أتباعه الصلاة وتركها ناقصة ، وقد أخذت شكلها النهائي على أيدي الصحابة ؟؟ .

لكن الأمر لا ينتهي إلى هنا . الصلاة في الإسلام جماعية ، وكان المسلمون يصلون جماعة ، كما هو واضح في الآيات القرآنية نفسها . وفي السنة الأولى أو الثانية وجد الأذان والقرآن نفسه يشير إليه[٣٣] والشهادتان جزء من الأذان ، إذا ثبت هذا فكل ما كتبه فنسنك من « التدقيقات والتحقيقات » يصبح كلاماً فارغاً بل هراء إلا إذا كان فنسنك يفكر في إدخال الأذان في وقت متأخر أيضاً لعله بعد الاقتباس من النصارى البيزنطيين . وهذا مثال لنقد مستشرق أفنى عمره في تأليف المعجم المفهرس لألفاظ الحديث . وسنبحث الآن في انتقادات عميد المستشرقين في الوقت الحاضر وهو البروفسور شاخت .

البروفسور شاخت ونقده للحديث بناء على المتن :

ألف موسى بن عقبة الأسدي (مات سنة ١٤١ هـ)[٣٤] مولى بني الزبير بن العوام كتاباً في المغازي[٣٥] أثنى عليه الأئمة الأعلام . كان مالك بن أنس يقول : « عليكم بمغازي موسى بن عقبة فإنه ثقة »[٣٦] .

لا نعرف شيئاً عن كتابه المغازي في الوقت الحاضر إلا الاقتباسات التي في بطون الكتب ، مثل تاريخ الطبري[٣٧] والدرر في المغازي والسير لابن عبد البر[٣٨] وغيرهما .

وهناك مخطوطة في برلين رقم ١٤٤٥[٣٩] تشتمل على بضعة عشر حديثاً منتخبة من

---

(٣٣) سورة الجمعة ٩ .

(٣٤) تهذيب التهذيب ١٠ : ٣٦٢ .

(٣٥) تذكرة الحفاظ ١٤٨ .

(٣٦) الجرح والتعديل للرازي ٤/١ : ١٥٤ انظر أيضاً التهذيب ١٠ : ٣٦١ ، ٣٦٢ .

(٣٧) انظر على سبيل المثال الطبري ١ : ٢٩٨١ ، ٢٩٩٨ ، ٣٠٧٣ ، ٣١٠٣ ، ٣١٣٧ .

(٣٨) انظر مثلاً : ٥٦ ، ٥٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٤ .

(٣٩) تاريخ أدب العرب لبروكلمان ٣ : ١٠ (الترجمة العربية) .

مختلف أجزاء المغازي ، لعلها من انتخاب يوسف بن محمد بن عمر بن قاضي شهبة (٧٨٩ هـ) ونشرها ادوار سخاو مع ترجمتها بالألمانية والتعليقات عليها[٤٠] .

وبعد مضي نصف قرن على نشر تلك المخطوطة ، كتب البروفسور جوزيف شاخت مقالة : « على كتاب المغازي لموسى بن عقبة » وانتقد فيها الأحاديث الواردة في المنتخب[٤١] .

هذه المقالة تمنحنا فرصة ذهبية للاطلاع على منهج شاخت في نقد الحديث المبني على المتون ، وما عسى يمكننا أن نضيف إلى مناهج المحدثين أو على الأقل يثبت لنا عدم جدوى منهج المحدثين في نقدهم .

يقول شاخت : إنه نادى بالعودة إلى النقد العميق في دراسة الأحاديث . وقال : إنه وصل إلى النتيجة الآتية :

إن جزءاً هاماً من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم عن الفترة المدنية ، كما ظهرت في كتابات النصف الثاني من القرن الثاني ، يرجع في أصله إلى عهد قريب جداً من الكتابة ، ولذلك ليست له أية قيمة تاريخية إذ بعد مضي قرن ونصف لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم تقريباً ، ما بقيت في ذاكرة الجماعة إلا تصورات غامضة مبهمة عن نبيهم ، بالرغم من هذا ، بذلت الجهود لسد النواقص وأضيفت الرتوش والألوان ورتبت المواد ترتيباً منهجياً وصيغت بشكل الأحاديث مع إضافة الأسانيد . وكان كل ذلك في القرن الثاني الهجري[٤٢] .

هذه « النتائج » التي وصل إليها شاخت ــ في نظره ــ بعد دراسته للأحاديث الفقهية ، أراد أن يطبقها في ميدان السيرة أيضاً ، ولذلك اختار لهذا الغرض « المنتخب » من مغازي موسى بن عقبة .

---

(٤٠) Sachau: *Das Berliner Fragment des Musa Ibn Ukba*, Sitzung. der Phil. Hist Classe, Feb. 1904 pp. 465–470.

(٤١) Schacht, J. *On Musa b.ᶜUqba's "Kitāb al-Maghāzī"*, Acta Orientalia, 1953, vol xxi, pp. 288–300.

(٤٢) *Ibid.*, p. 290 .

وأنا بدوري أختار بعض الأحاديث التي تكلم عنها شاخت ، كنموذج للنقد ، وليس هدفي هو نقد مقالته من أولها إلى آخرها ، لأن ذلك يتطلب مجالا أوسع .

وقبل البدء بنقل آرائه ومناقشتها ، يحسن بنا أن ننقل النصوص أولا ، لنتمكن من الرجوع إليها بسهولة ، ولهذا الغرض نأخذ الحديث رقم ٦ و ٨ و ٩ و ١٠ من المنتخب المطبوع .

الحديث رقم (٦) :

قال ابن شهاب ، ثنا أنس بن مالك أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : ائذن لنا يا رسول الله فلنترك لابن أختنا عباس فداءه ، فقال : « لا والله لا تذروا درهماً » .

الحديث رقم (٨) :

« ثنا اسماعيل بن إبراهيم بن عقبة ، قال : قال سالم بن عبد الله ، قال عبد الله ابن عمر ، فطعن بعض الناس في إمارة أسامة فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : « إن تطعنوا في إمارة أسامة فقد كنتم تطعنون في إمارة أبيه من قبله . وأيم الله إن كان خليقاً للإمارة وإن كان لمن أحب الناس كلهم إلي ، وإن هذا لمن أحب الناس إلي بعده ، فاستوصوا به خيراً من بعدي فإنه من خياركم » .

الحديث رقم (٩) :

« قال موسى ، قال سالم بن عبد الله ، قال عبد الله بن عمر : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستثني فاطمة رضي الله عنها » .

الحديث رقم (١٠) :

« قال موسى بن عقبة ، حدثني عبد الله بن الفضل أنه سمع أنس بن مالك يقول : حزنت على من أصيب بالحرة من قومي ، فكتب إلي زيد بن أرقم ، وبلغه شدة حزني يذكر : أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : اللهم اغفر للأنصار ولأبناء الأنصار ، ونسأل الفضل في أبناء أبناء الأنصار » .

نقد شاخت لهذا المنتخب من مغازي موسى بن عقبة :

يقول شاخت معلقاً على هذا المنتخب : إن محتويات المنتخب من الأحاديث من النوع الذي نتوقعه في منتصف القرن الثاني . ولا يمكن تجاهل الأثر العباسي في هذه الأحاديث ، وهي ذات نزعة شديدة ضد العلويين . خاصة والعطف الظاهر إلى خلافة أبي بكر يشير إلى أنها انتحلت في وقت متأخر نسبياً من بدء الدولة العباسية . ولذلك من الصعوبة بمكان أن نقبل أن موسى بن عقبة كان مؤلفاً لهذا الكتاب ، لأنه مات في بدء الدولة العباسية .

انتقادات شاخت على الأحاديث المختارة من المنتخب مفصلة :

الحديث رقم (٦) :

قال شاخت : يحاول هذا الحديث أن يلطف الجو لمصلحة الأسرة الحاكمة ــ العباسيين ــ بقصة أسر جدهم الأعلى الذي كان يحارب ضد النبي صلى الله عليه وسلم ، والذي أسره المسلمون فكان عليه أن يفدى .

الحديث رقم (٨) :

روى اسماعيل بن ابراهيم بن عقبة (المتوفى في حدود ١٦٠ هـ) ، هذا الحديث عن سالم بن عبد الله (المتوفى ١٠٦ هـ) مباشرة ، ولم يروه عن طريق موسى بن عقبة . ولسد هذه الهوة الزمنية أدخل اسم موسى بن عقبة فيما بينهما كما نرى عند البخاري مثلاً ، وبالطبع أدخل هذا التحسين في الإسناد في وقت متأخر . لذلك لا يمكننا أن نعتبر هذا الحديث جزءاً أصيلاً من كتاب المغازي الأصلي لموسى بن عقبة .

الحديث رقم (٩) :

ينكر هذا الحديث الامتيازات لسلالة النبي صلى الله عليه وسلم في القانون الجزائي ــ قانون العقوبات ــ لذلك يعتبر هذا الحديث ضد العلويين .

الحديث رقم (١٠):

يمدح هذا الحديث حزب الأنصار الذي كان موالياً للحكام وفي صف العباسيين. وعلى هذا الأساس لا تصح نسبة هذه الأحاديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم.

ولكن يا ترى هل هذا الاستنتاج العقلي والنقد المبني على «الحقائق التاريخية» متفق عليه بين المستشرقين أم ثمة استنتاج آخر يعارض ما ذهب إليه شاخت؟

نقد البروفسور غيوم لهذا المنتخب من مغازي موسى بن عقبة:

يقول غيوم معلقاً على كتاب «المنتخب من مغازي موسى بن عقبة»: من الواضح أن موسى بن عقبة يتعاطف مع آل الزبير والأنصار فقط، بينما العلويون في نظره ليسوا أحسن من أحد، أما الأمويون فيستحقون عنده اللوم من أجل مذبحة الحرة. ويقدم العباس ثائراً ومتمرداً على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يجبر على دفع الفدية إلى قصارى جهده بسبب مخالفته النبي (صلى الله عليه وسلم)[٤٣].

الرد على نقد المستشرقين:

الرد على نقد **الحديث رقم (٦):**

نرى ــ في ضوء ما نقلنا من قبل ــ أن غيوم يستنتج من الحديث رقم ٦ الخاص بأسر العباس أن هذا الحديث موجه ضد العباسيين، بينما يجد فيه شاخت روحاً موالية للعباسيين. ولا نستطيع أن نوفق فيما بين استنتاجاتهما، إذ لا يمكن الجمع بين النقيضين.. وهذا أول دليل ضد المنهج الذي ينادون به.

ومن الناحية الثانية أن العباس بن عبد المطلب كان عم النبي صلى الله عليه وسلم، والعم صنو الأب. ومكانته معروفة في الشرق بأكمله، وكان من الممكن أن يعفو عنه النبي صلى الله عليه وسلم كما رغب فيه الأنصار أيضاً، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم رفض قائلاً: «لا والله، ولا تذروا درهماً». إذن لم يظهر النبي صلى الله عليه وسلم أي عطف على العباس في هذه الحادثة. لذلك كان قول شاخت بأن فيه

---

(٤٣) Guillaume, A. *The Life of Muhammad,* Introduction, p. xlvii.

ميلاً نحو العباسيين كلام يناقض العقل والمنطق . علاوة على ذلك إن كان هذا الحديث من نسيج الخيال ، وقد وضع في عهد العباسيين ، وذلك لمصلحتهم وبعد مضيّ فترة من حكمهم ، فلمَ لم يحاول العباسيون قلب الحادث رأساً على عقب ؟ ولمَ لم يفكر العباسيون في تبييض صحيفة جدهم ؟ وعلى الأقل كان من الممكن حذف الكلمة : لا والله لا تذروا درهماً ، حتى لا يرى الناس العباس ــ جد الخلفاء العباسيين ــ مضطراً إلى دفع آخر درهم .

وإذا كان الأمر ــ كما يدعي شاخت ــ أن هذه الأحاديث إنما وضعت في عهد العباسيين ضد العلويين ، فلمَ لا يكون الوضع في القرن الأول نفسه عندما اشتد الخلاف بين العلويين والأمويين . أو لم يكن الزهري يشتغل مع الأمويين ؟ فإذن ما المانع أن يكون الحديث وضع في القرن الأول ؟ لذلك يمكننا أن نتساءل ما هو السبب الوجيه الذي يدفعنا إلى أن نقبل هذا الادعاء بأن هذا الحديث جاء إلى عالم الوجود في النصف الثاني من القرن الثاني ولا يمكن أن يكون معروفاً قبل ذلك ؟ .

الحديث رقم (٨) :

لقد أنكر شاخت أن يكون هذا الحديث في أصل كتاب موسى بن عقبة ، وبنى هذا الحكم على وجود خطأ في الإسناد ، وفي الواقع ليس هذا الخطأ في الإسناد ، لكنه في نسخ الإسناد .

أولا : أن هذه المخطوطة ليست بخط موسى بن عقبة بل إنها انتخبت في القرن الثامن . ثم لا توجد من هذا المنتخب إلا نسخة واحدة اعتمد عليها المحقق في طبعها .

والمعروف لكل من يشتغل في التحقيق أن النظر ينخدع في نقل الجمل والكلمات خاصة إذا كانت متكررة . وبما أن الراوي هو اسماعيل بن إبراهيم بن عقبة والمؤلف موسى بن عقبة فتكرار كلمة عقبة كاف لارتكاب هذا النوع من الخطأ . أو كانت العبارة الأصلية : اسماعيل بن ابراهيم عن ابن عقبة فسقطت كلمة عن ، والاحتمال الأول أرجح . على كل ، هذا النوع من الخطأ معروف لدى المحققين كافة ، فالبناء على هذا الخطأ في النسخ للرد على هذا الحديث بناء تعسفي ، وكلام غير علمي إلا إذا

قلنا : إن الإنسان لا يخطئ أبداً . وإذا اعتبرنا هذا المبدأ صحيحاً فيقع البروفسور شاخت في مشكلة كبيرة .

فمثلاً : نقل سيخو ـ عند نشره لهذا المنتخب ـ إن الله لا يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر ، بينما في صورة المخطوطة التي نشرها مع المقال : إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر .

يا ترى هل كان هذا عمداً منه ، للبروفسور شاخت أن يقول ذلك ، أما أنا فأقول إنه خطأ في النسخ لا غير . بل البروفسور شاخت يقع في مشكلة أخرى أكبر من ذي قبل .

قال شاخت :

إن ابراهيم النخعي يعرف أن القنوت في الصلاة بدعة استحدثت بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بفترة في عهد علي ومعاوية . ويؤكد ابراهيم هذه الحقيقة بأنه ليس هناك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أبي بكر وعمر بهذا الصدد . كما يظهر بمراجعة كتاب الآثار لأبي يوسف[٤٤] .

ومن الغريب في الموضوع أننا نجد في كتاب الآثار المشار إليه عكس ما يدعيه شاخت . فهناك حديث متصل الإسناد إلى النبي صلى الله عليه وسلم لإثبات القنوت وحديث آخر مرسل .

لا ندري أي موقف يختار شاخت لنفسه الآن . هل كان متعمداً أم مخطئاً في النقل ، على كل له كامل الحرية إن أراد أن يختار الشق الأول ، أما أنا فأقول : إنه ربما كان مخطئاً ، والخطأ والسهو والنسيان من فطرة الإنسان . وإذا كان الأمر هكذا فالكلام نفسه يقال عن الخطأ الواقع في نسخ إسناد الحديث رقم/ ٨ .

ثانياً : الحديث رقم/ ٩ الذي يذكر إسناد موسى عن سالم فهو في الواقع جزء من الحديث رقم/ ٨ وليس حديثاً منفصلاً ، كما سنرى بعد قليل .

---

(٤٤) *The Origins of Muhammadan Jurispridence,* p. 60.

الحديث رقم (٩) :

يقول شاخت : الحديث رقم/ ٩ ضد العلويين ، لأنه ينكر امتياز العلويين في القانون الجنائي . ولكن هل طلب النبي صلى الله عليه وسلم لنفسه امتازاً في القانون الجنائي ، ألم يقدم النبي صلى الله عليه وسلم نفسه للقصاص ؟ وهل هناك إشارة ــ ولو من بعيد ــ يفهم منها أن النبي صلى الله عليه وسلم أو سلالته فوق التشريع ؟ ألم يقل : « والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . أليست مساواة الناس كلهم أمام القضاء وأمام الشريعة شيئاً مطلوباً وأمراً حسناً ؟ بدلا من أن يرى شاخت في هذا الحديث مساواة المسلمين كافة أمام الشريعة إذا هو يجد فيه عناصر ضد العلويين . وهل ادعى علي رضي الله عنه نفسه يوماً ما أنه فوق الشريعة ؟ إذن على أي أساس يعتبر هذا الحديث ضد العلويين ؟

من ناحية أخرى فإن شاخت لم يفهم معنى الحديث نفسه . إذ هذا الحديث لا صلة له بالنظام الجزائي وقانون العقوبات . وفي الواقع الحديث رقم/ ٩ ليس حديثاً مستقلاً بل هو جزء من الحديث رقم/ ٨ . وقد أخطأ سخاو ــ بسبب تكرار السند ــ فعده حديثاً ثانياً مستقلاً . وتبعه شاخت في خطئه بدون أن يمعن النظر . وهذا الحديث لا يشير لا من قريب ولا من بعيد إلى قوانين العقوبات ، بل يشير بكل بساطة إلى إمارة أسامة واعتراض بعض الناس عليها . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أسامة أحب الناس إلي » .

أضاف إليه ابن عمر قائلاً ، عندما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أسامة أحب الناس إلي » لم يستثن فاطمة ولا غيرها .

ولقد روى الطيالسي هذا الجزء من الحديث عن طريق حماد عن موسى بن عقبة ، وفيه : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أسامة أحب الناس إلي ، ولم يستثن فاطمة ولا غيرها[٤٥] . كذلك يوجد هذا الحديث بشطريه في مصادر أخرى .

---

(٤٥) للتفصيل انظر دراسات في الحديث النبوي ٤٦٧ ــ ٤٦٨ .

فقد روى ابراهيم بن طهمان (١٦١ هـ) هذا الحديث في مشيخته عن موسى بن عقبة مباشرة[٤٦] . كما روى هذا الحديث بكامله الطبراني (٣٦٠ هـ) من طريق عبد العزيز بن المختار عن موسى بن عقبة[٤٧] .

الحديث رقم (١٠) :

قال شاخت : الحديث رقم/ ١٠ يمدح الأنصار الذين كانوا في صف العباسيين ، لذلك هذا الحديث موجه ضد العلويين . لكن مع الأسف نقل الشيعة هذا الحديث في كتبهم مرة بعد أخرى[٤٨] وهذا يدعونا إلى الشك في استنتاج شاخت نفسه . لأنه مما لا شك فيه أن الشيعة أخرجوا كافة الصحابة ــ عدا عدة أشخاص ــ من حظيرة الإسلام ، بالرغم من هذا نقلوا هذا الحديث في كتبهم وكأنهم قد أصابهم العمى فلم يروا أن هذا الحديث ضد العلويين ، ولم ينتبه إليه إلا البروفسور شاخت فقط.

من ناحية أخرى يجد غيوم هذا الحديث موجهاً ضد الأمويين ، لأن هذا الحديث يقرعهم على مذبحة الحرة . وفي الواقع نحن لا نستطيع أن نوافق غيوم إلا إذا أردنا أن نجري على خلاف السنن الطبيعية التي تسود حياة الناس ، ونقول : بأن على الجماهير أن تمجد المجرم والقاتل . وبناء على ذلك ينبغي للعالم الغربي أن يمجد هتلر الزعيم النازي الذي دمر حياتهم .

ومن ناحية ثانية ، فإن الأنصار هم الذين آووا النبي صلى الله عليه وسلم وآزروه وناصروه في وقت اضطر النبي صلى الله عليه وسلم فيه إلى الهجرة من بلده ، وقد أراد أهل مكة قتله ، فدافع عنه الأنصار ، وجاهدوا في الله وقدموا كل ما يملكون من غال ورخيص ومن نفس ومال لذلك كان من الطبعي أن يشكر النبي صلى الله عليه وسلم صنيعهم ، لأنه هو القائل : «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» .

---

(٤٦) انظر جزء ابراهيم بن طهمان ورقة ٢٥٠ ــ ١ .

(٤٧) المعجم الكبير ٥:٣٨١ ــ أ .

(٤٨) المجلسي ، بحار الأنوار ٢١:١٥٩ ــ ١٦٠ ، مجمع البيان للطبراني ٥:١٨ ــ ٢٠ ، انظر أيضاً ابن أبي الحديد ، شرح نهج البلاغة ٢:٢٥٢ .

إذن ما هي الاستحالة العقلية أو العادية في قبول هذا القول بأنه صادر عن النبي صلى الله عليه وسلم؟ وما الذي يدفعنا إلى الانتظار حتى منتصف القرن الثاني لولادة هذا الحديث؟ وما موقفنا من الآيات الصريحة الواضحة في مدح الأنصار أنفسهم؟

قال الله تعالى في كتابه العزيز: ﴿ والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك الفوز العظيم ﴾ [التوبة ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم إنه بهم رؤوف رحيم ﴾ [التوبة ١١٧].

وقال تعالى: ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [الحشر ٩].

وفي الواقع أننا لا نجد كلمة في هذا الحديث في مدح الأنصار، بل هناك استغفار ودعاء. والله سبحانه وتعالى هو الذي أمر نبيه بالاستغفار. قال تعالى: ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ [آل عمران ١٥٩].

فالقرآن يعطي الأنصار أكثر مما أعطوا في الحديث رقم/ ١٠. فإذا كان هذا الحديث لا بد وأنه اخترع في منتصف القرن الثاني أو بعده لمصلحة الأنصار الموالين للعباسيين والمعادين للعلويين، فلا ندري من الذي اخترعه ومتى اخترع هذه الآيات القرآنية التي أعطت الأنصار أضعاف ما أعطاهم هذا الحديث!!

هذه نماذج من نقد كبار المستشرقين من القرنين الماضي والحاضر، والقارئ يستطيع أن يقوّم مدى نجاح هؤلاء في نقد المتون بمعزل عن منهج المحدثين.

ومن نافلة القول أن نقول إن هذا ليس منهجاً بل هو اتباع لما يهوونه بدون مراعاة عقل أو منطق. لذلك لا يمكن اعتبار « منهجهم » منهجاً علمياً لأنه لا يحمل في طياته صفات المناهج العلمية، إذ ركيزته الهوى لا غير.

وقد قام الغربيون بنقد كتبهم المقدسة ، وادعى بعضهم استعمال ذلك المنهج في نقد الأحاديث النبوية ، وفي الصفحات القادمة نبحث مدى جدوى هذا المنهج في نقد الأحاديث النبوية .

نقد الأحاديث ومنهج نقد الصيغة Form Criticism

لقد تحدث وليم موير في مقدمة كتابه « حياة محمد » صلى الله عليه وسلم عن مصادر السيرة النبوية ، فقال : إن الأحاديث قد دونت في وقت متأخر ، على الأقل بعد مائة سنة من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، بالإضافة إلى ذلك ان المدونات القديمة ليست في أيدينا ، لذلك لا يمكن الاعتماد على الأحاديث بوصفها مصدراً للسيرة النبوية ، وحتى يمكن الاستفادة منها ، طالب موير أن يستعمل في نقد الأحاديث المنهج المتبع في نقد روايات الكتب المقدسة لدى اليهود والنصارى .

وبعد فترة من الزمن اقترح البروفسور روبسون لنقد الأحاديث النبوية استعمال المنهج المسمى (نقد الصيغة Form Criticism) المستعمل لنقد نصوص الأناجيل وهو يصرح بنفسه أن هذا المنهج ليس متفقاً عليه بين الباحثين في كتب العهد القديم والجديد .

وعلينا أن نعرض بإيجاز أسس منهج نقد الصيغة Form Criticism ليتضح أن هذا المنهج يخضع لذوق الباحث أكثر من خضوعه « للمنهج العلمي » ، إضافة إلى ذلك هناك فرق جوهري بين الأحاديث النبوية وكتب العهد القديم والجديد . كما سنرى قريباً ، بإذن الله تعالى ، لذلك لا مجال لاستعماله في الأحاديث النبوية .

ولو أنه لا يجوز المقارنة بين الأحاديث النبوية وكتب العهد الجديد لكني أراني مضطراً للمقارنة لإثبات بعض النقاط التي تميز الأولى عن الأخيرة .

في الأحاديث النبوية كل كلام أو فعل أو تقرير من النبي صلى الله عليه وسلم وصل إلينا عن طريق أشخاص معروفين وعلى وجه العموم موثوقين أيضاً . وأصبحت أسماء هؤلاء الأشخاص كافة كأنها جزء من الكلام النبوي نفسه . كما أننا نملك تراجم الرواة كافة على وجه التقريب ، ونستطيع أن نحدد ولادتهم ووفاتهم وتلمذتهم وتدريسهم ودرجة حفظهم واتقانهم وما شاكل ذلك . فكل شيء واضح ، وكل كلام من النبي صلى الله عليه وسلم نعرف الطريق التي وصل بها إلينا .

أما إذا راجعنا « الكتب المقدسة » وخاصة العهد الجديد فنعود إلى ظلام دامس ، نجهل كل شيء ، فلا ندري مؤلفي الكتب ، فضلاً عن معرفتنا بسيرتهم ولا نعلم علم اليقين اللغة التي استعملوها في تأليف كتبهم . ولا مقدرتهم العلمية لترجمة كلام عيسى عليه السلام من الآرامية إلى اليونانية .

العهد الجديد :

مؤلفوه : اختلف المؤرخون في شخصيات مؤلفي العهد الجديد .

ويقول سيرايدون هوسكنز ونويل ديوي : إن مؤلفي العهد الجديد كانوا غير مهتمين بالمسائل مثل اسم المؤلف وتاريخ الكتابة وما شاكل ذلك ، وليس هناك كتاب واحد مؤرخ ، والكتب التاريخية ــ خلافاً للرسائل ــ للمؤلفين المجهولين .

على كل حال لم يكد القرن الثاني الميلادي يشارف على الانتهاء حتى وجدنا أن هذه الكتب الأربعة نسبت مباشرة أو بطريق غير مباشر إلى المؤلفين القديسين . ويذكر أن أول من ألف هو القديس متّى وبعده القديس مرقس ولم يكن مرقس مؤلفاً لهذا الكتاب بالمعنى الصحيح بل الكتاب في أصله راجع إلى القديس بطرس ، والقديس لوقا كان مؤلفاً للإنجيل الثالث وأعمال الرسل ، وبما أنه كان مصاحباً للقديس بولس ، لذلك كتابه في الأصل راجع إلى القديس بولس والقديس يوحنا حواري المسيح عليه السلام نشر إنجيله في ايفيس . وهو آخر من ألف إنجيلاً صحيحاً معتمداً عليه . وإذا كنا لا نستطيع ــ مع وجود بعض الدلائل ــ أن نسمي مؤلفي الأناجيل ، فعملية تاريخ التدوين أكثر تعقيداً[٤٩] ، ويبدو أنه ليس هناك سبب وجيه لنأمل أن الموضوع لا يبقى هكذا . . . وفي الواقع أن هذه الكتب بأقلام مجهولين وبدون تواريخ . وقد انبثقت من الكنائس البدائية وكان يظن أنها تمثل الروايات الشفهية الكنسية . لذلك إذا أردنا الانتفاع بها فعلينا أن نعاملها باعتبار ما وضعت لأجله وليس لنا حق في اعتقاد أنها مضمونة من قبل القديسين المعروفين[٥٠] .

---

(٤٩) Hoskyns, E. and Davey, *The Riddle of the New Testament*, p. 183.

(٥٠) Ibid, pp. 196–201, see also, Bultmann, R. *Form Criticism*, p. 15.

مصـــادره :

يميل الباحثون ــ خلافاً لما كان شائعاً بين علماء النصارى ــ إلى أن كتاب مرقس سبق في ظهوره بقية الكتب الثلاثة الباقية . وإلى اعتقاد أن متى ولوقا كلاهما استعملا مرقس في تأليفهما مع استعمال بعض المصادر الأخرى مكتوبة أو شفوية . لكن ما قيمة مرقس نفسه :

يقول بلتمان : لا ريب أن مرقس أول من ألف وظهر إنجيله بين الأناجيل الأربعة لكنه لا يمكننا أن نقبل كلامه بوصفه تاريخاً حقيقياً للمسيح عليه السلام لأنه في الواقع قد سيطرت عليه عقائد الكنيسة والتصور العقائدي عن المسيح نفسه . ورتب المواد التي كانت بين يديه . وهذبها وعدلها حسب نظرياته[٥١] .

ويقول ولهاوزن : إن الروايات الشفهية أيضاً تأثرت بعقائد الكنيسة البدائية ونمت في مجتمع بدائي ، فهي مشوبة بنظرات المجتمع وتصوراته ، لذلك فهي لا تعطينا صوراً صحيحة خالية من الخطأ ولا تعطينا تعليم المسيح نفسه[٥٢] .

ويقول كارل كندسين : هناك عدة أجيال اشتغلت في البحث والتنقيب في العهد الجديد بغية استخلاص أعمال المسيح وشخصيته بمساعدة علم التاريخ الحديث .

والناس مقتنعون حالياً أن المواد الموجودة في هذه الكتب غير كافية لإعطائنا صورة بسيطة وشبه كاملة لحياة المسيح . كما أصبح واضحاً أن الأناجيل ومصادرها في أول الأمر عبارة عن انعكاسات العقائد لكنائس المسيحية الأولية[٥٣] .

إذن هذه الكتب مصادرها مجهولة ، ولا يمكن الاعتماد عليها كلياً ، لأنها لا تمثل آراء وأفكار وتعاليم عيسى عليه السلام بقدر ما تمثل النظريات العقائدية اللاهوتية المسيحية للكنائس البدائية .

والأمر لا يقف عند هذا الحد بل هناك أمر آخر أكثر أهمية من هذا . وهو أنه حصل تحول خطير عند النصارى في نظراتهم وأفكارهم ومعتقداتهم بين الكنيسة الفلسطينية البدائية وبين الكنائس الرومية التي تأثرت بالروح الهيلينية[٥٤] .

---

(٥١) Bultmann, *Form Criticism*, p. 22.

(٥٢) Ibid, p. 22.

(٥٣) Ibid, p. 81.

(٥٤) Ibid, pp. 96–100 see also, p. 17.

ومن الواضح أن الأناجيل الأربعة تمثل التحول الغربي ولا تعطينا فكرة واضحة عن الأفكار السائدة في فلسطين في تلك الأيام .

لغتـــه :

هذه الأناجيل كافة كتبت باللغة اليونانية ، والذي يتفق عليه الجميع أن الأناجيل كلها ما عدا متى كتبت باليونانية أما متى فكتب بالآرامية ثم ترجم إلى اليونانية والأصل ضائع . لكن البحث العلمي لا يؤيد هذا الادعاء ، وأصبح هناك شبه اجماع على أنها كلها كتبت باللغة اليونانية[٥٥] .

كما أننا نجهل المؤلفين ونجهل كذلك قدرتهم العلمية التي تؤهلهم لترجمة كلام عيسى عليه السلام من الآرامية إلى اللغة اليونانية . ولا يبدو أن هؤلاء الكتاب كانوا قد وصلوا إلى منزلة كبار الأدباء باللغة اليونانية ، ولذلك لم نجد للأناجيل مكاناً في الأعمال الأدبية .

خلاصة القول أنه حصل هناك تحول خطير في الأفكار المسيحية عندما انتقلت المسيحية من فلسطين إلى الغرب . والكتب التي في أيدينا تعطينا انطباعات وانعكاسات القديسين الغربيين أكثر من الآراء التي كانت سائدة في فلسطين نفسها . وهي مليئة بالأخطاء[٥٦] .

وحتى إذا أخذنا الأناجيل الموجودة بين أيدينا والتي تمثل الوجهة الهيلينية (اليونانية) فإننا نصطدم بعقبات عديدة لا يمكن حلها .

من ذلك أن شخصيات المؤلفين مجهولة ، لا نعرف عنهم شيئاً ، فإلى أي مدى يمكننا الاعتماد على أقاويلهم . وإن سلمنا ــ كما يقولون ــ بأن معرفة الأشخاص لا تهمنا بقدر ما تهمنا معرفة محتويات الكتاب ، فحتى هذا لا يمكن الركون إليه . لأن

---

(٥٥) Hoskyns, *The Riddle of the New Testament*, p. 16.

(٥٦) قال P. Auvray و A. Barueq في كتابهما : *Introduction a La Bible* ص ١١١ بأنه يوجد في مخطوطات الأناجيل باللغة اليونانية فقط أكثر من مائتي ألف اختلاف varinats ، بعضها بسيط والبعض الآخر في غاية الخطورة .

هذه الكتب لا تمثل تمثيلاً صحيحاً معتقدات عيسى عليه السلام وتبليغاته بل هي الأخرى ملوثة وملونة بأفكار الكتّاب والآراء والمعتقدات الكنسية السائدة في تلك الأيام .

وإذا سلمنا بعد هذا كله بأنه توجد هناك مسحة من كلام سيدنا المسيح الذي تناقله المسيحيون القدامى فإننا نجد عقبة أخرى ، عقبة اللغة ، إذ كيف يمكننا الوثوق بصحة الترجمة من الآرامية إلى اللغة اليونانية .

هذه هي المجاهل والمتاهات أمام الباحث عن الأناجيل ، وهي لا شك ظلمات بعضها فوق بعض .

ولاستخلاص بعض كلمات عيسى عليه السلام والروايات المسيحية الخالية عن تلوين القديسين من هذا الركام نشأ منهج (Form Criticism) .

ولكن هذا المنهج نفسه ليس منهجاً علمياً بحتاً ، يمكن الاعتماد عليه اعتماداً كلياً ، ولإثبات هذا أذكر مثالا واحداً :

يقول بلتمان : مثال آخر للطريق التي لعب بها التصور في تطوير المادة القديمة واتقان القصة .

فيذكر لنا لوقا في الاصحاح ٢٣ : ٣٩ ــ ٤٣ استهزاء وكلام المذنبين المصلوبين مع عيسى .

« وكان واحد من المذنبين المعلقين يجدف عليه قائلاً : إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك وإيانا . فأجاب الآخر وانتهره قائلاً . أولا أنت تخاف الله إذ أنت تحت هذا الحكم بعينه . . . » بينما يذكر مرقس (١٥ ــ ٣٢) : « وصلبوا معه لصين واحد عن يمينه وآخر عن يساره . . . » « واللذان صلبا معه كانا يعيرانه »[٥٧] فإنجيل مرقس أقدم من لوقا بالرغم من هذا المصدر القديم يعطينا معلومات أقل من المصدر المتأخر ويرى بلتمان التفاصيل الموجودة في لوقا عبارة عن زيادة رتوش في تصوير القصة واتقانها[٥٨] .

---

(٥٧) Bultmann, R. *Form Criticism*, p. 9.

(٥٨) Ibid, p. 33.

وقد يكون كلام بلتمان صحيحاً وقد لا يكون . وليس من الضروري أن كل ما ورد من الزيادات من المعلومات في المصدر المتأخر مآله التهذيب والتعديل والإضافات والتلوين والرتوش على الصورة القديمة لتصبح أكثر جمالا وقدسية . نعم قد يكون صحيحاً في بعض الحالات وقد لا يكون الأمر كذلك في حالات أخرى . إذ يمكن أن يكون المصدر المتأخر استعمل مصادر أخرى لم تكن معروفة لدى المؤلف القديم . أو المؤلف القديم كان يميل إلى الاختصار فأخذ بلب القصة وترك التفاصيل . أو غير ذلك من الأسباب الوجيهة العديدة المسوغة لوجود تفصيل أكبر في المصادر المتأخرة عما نجده في المصادر المتقدمة .

وعلى كل في كلتا الحالتين نتبين أن طريقة Form Criticism لا تبدو منهجاً علمياً يمكن الاعتماد عليه وعلى نتائجه بكل دقة وطمأنينة .

ومن الواضح كذلك أنه قد تختلف نتيجة البحث باختلاف الباحثين ونظراتهم وتصوراتهم .

خلاصة القول :

إن Form Criticism وجد للبحث في منطقة مجهولة مظلمة ذات أشواك لإنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وبالرغم من هذا لا يمكن الاعتماد على نتائجه اعتماداً كلياً ، فكيف يمكن تطبيق هذا المنهج على الأحاديث النبوية ، وشتان ما بين الثرى والثريا .

وهكذا يتبين لنا بعد الدراسة والتحقيق ، أن المحدثين أوجدوا لأنفسهم منهجاً علمياً رصيناً لنقد الأحاديث النبوية . والمنهج دقيق من ناحية وعملي من ناحية أخرى ، ولم يكن مجرد منهج على الورق بعيد عن واقع الحياة العملية ، بل طبق ويمكن تطبيقه في كل وقت وبكل معنى الكلمة . والمحدثون في انتقاداتهم وفحوصهم سبقوا المؤرخين شوطاً طويلاً ، ولم يلحق بهم منهج البحث التاريخي حتى الآن رغم مختلف الادعاءات والمحاولات .

وقد كشفت لنا الدراسة أيضاً عن مدى تخبط الباحثين الذين استغنوا عن منهج المحدثين في نقدهم للأحاديث معتمدين على المتون مبعدين الأسانيد ، وأثبتت لنا عدم صلاحية هذا المنهج .

كذلك ثبت بكل وضوح أن منهج النقد المستعمل في تنقية المواد من العهد القديم والعهد الجديد لا يسعفنا إطلاقاً في نقد الأحاديث النبوية . فالأحاديث النبوية نسيج وحدها ، والمجموعات الحديثية فريدة لا نظير لها ، لا تخضع إلا لمنهجها الخاص الذي ولد ونما على أيدي علماء المسلمين . ويكون من الخير للعلم والتاريخ وللكتب المسيحية أيضاً أن تستعين بمنهج المحدثين إذا أريد في هذه المجالات التوصل إلى الحقيقة أقرب ما تكون إلى واقع الأشياء .

والحمد لله أولا وآخراً .